



مثلت العصبية، التي ردت بها طهران على فضح موسكو اتفاقية السماح لها باستخدام قاعدة همدان الجوية (غرب إيران)، لمساندة العمليات العسكرية الروسية في سوريا، مناسبةً جديدةً للدلالة على مستوى التوتر المكتوم في علاقة الحليفين المفترضين، إذ وصف وزير الدفاع الإيراني، حسين دهقان، السلوك الروسي بأنه "غير مسؤول"، وفيه "خيانة للثقة"، وهي لغة غير مسبوقة تداولها في التعامل الدبلوماسي بين البلدين.

كما سددت "الفضيحة" ضربةً جديدةً لـ"تيار موسكو" في طهران، والذي يواجه، منذ فترة، صعوبةً في تفسير السلوك الروسي في الحرب السورية، خصوصاً في ضوء إحجام روسيا، أحياناً، عن تقديم الدعم الجوي "المناسب" لقوات إيران و مليشياتها، ما يتركها مكشوفة بالكامل أمام قوات المعارضة السورية، كما حصل، أخيراً، في خان طومان و معارك فك حصار حلب. فوق ذلك، تحاول إيران ابتلاع حقيقة ارتباط الروس بتفاهمات مع الإسرائيлиين، يشهد على عمقها زيارة بنيامين نتنياهو موسكو أربع مرات في الأشهر التسعة الأخيرة، للتنسيق ميدانياً في سوريا، وانخراط الروس في مباحثات جدية مع الأميركيين لترتيبات أمنية في سوريا، بعيداً عن أعين حلفائهم المتوجسين في طهران.

وكانت إطاحة مسؤول الملف السوري في وزارة الخارجية الإيرانية، حسين أمير عبد اللهيان، في يونيو/ حزيران الماضي، قد كشفت حال الضعف الذي أخذ يعتري "تيار موسكو" الذي يقوده مستشار المرشد للشؤون الخارجية، علي أكبر ولايتي، وقائد فيلق القدس في الحرس الثوري، قاسم سليماني.

ويعد الثلاثي، ولايتي و سليماني و عبد اللهيان، القوة الدافعة وراء دعوة روسيا إلى التدخل في سوريا، لإنقاذ إيران من هزيمة محققة صيف العام 2015. ومنذ يونيو/ حزيران الماضي، غدا الملف السوري في عهدة وزير الخارجية، جواد ظريف، و سكرتير مجلس الأمن القومي، الجنرال علي شمخاني، فيما بدا وكأنه إقرار بمسؤولية "الثلاثي" عن خسارة سوريا.

وبمجرد تسلمه الملف السوري، بدأ ظريف رحلة التقارب مع تركيا، في محاولة لاستباق نتائج أي اتفاق روسي-أميركي، لا يلحظ مصالح إيران في سوريا، خصوصاً في ضوء الدعم الروسي-الأميركي المشترك للأكراد، وتصاعد الحديث في موسكو

مع ذلك، لا تشدّ الطريقة التي كشفت بها موسكو سر قاعدة همدان في الواقع عن دين السلوك الروسي في التعامل مع إيران، وأزماتها المتعددة، باعتبارها ورقة ضغط ومساومة في علاقتها المعقدة مع الغرب، خصوصاً واشنطن. لذلك، لا يعد السلوك الروسي هنا جديداً على طهران، ولا يمثل من ثم سبباً كافياً لفهم الغضبة الإيرانية من كشف سر همدان. فعلى الرغم من محاولتها التقارب مع إيران، على امتداد العقد الماضي، مثلاً، لم تكتف روسيا بالسماح بفرض عقوبات قاسية في مجلس الأمن على طهران، بل صوتت لصالح جميع القرارات التي صدرت عن المجلس، لمنع إيران من امتلاك التكنولوجيا النووية العسكرية، وهي القرارات 1737 (2006) و1803 (2007) و1747 (2008) و1929 (2010).

كما امتنعت موسكو، حتى هذا العام، مجازةً للغرب، عن تنفيذ عقد تم توقيعه قبل ثمانية سنوات لتزويد طهران بنظام صواريخ "إس-300"، على الرغم من تسديد قيمته 800 مليون دولار، وقد تقدّمت إيران، بسبب ذلك، بدعوى إلى محكمة التحكيم في باريس، طالبت فيها بتسديد موسكو أربعة مليارات دولار، لعدم التزامها بتنفيذ العقد. وдалامت روسيا على رفض صيانة الغواصات الإيرانية، التي كانت ستمنح إيران، في حال إعادة تأهيلها، حركة مناورة عسكرية واسعة في الخليج العربي والمحيط الهندي. ولا ننسى، أيضاً، كيف ماطلت موسكو عشر سنوات، لإنهاء بناء مفاعل بوشهر النووي وتجهيزه وتشغيله، بعد أن ظلت تستخدمه أداة للمساومة مع الغرب.

لا تخرج قضية قاعدة همدان عن هذا السياق في التعامل الروسي مع إيران. مع ذلك، أحدثت ما يشبه الصدمة في طهران، لا شيء إلا لأنها مثلت قمة الإدانة "لليزوفارانيا" الإيرانية، المتمثلة بازدواجية الخطاب والسلوك، الناشئة عن علاقة بنوية مرتبة ومعقدة بين إيران الخمينية والعالم. هنا، يمكن أن يسير كل شيء بصورة جيدة، طالما ظل سرياً، من "إيران غيت" وصفقة الأسلحة مع إسرائيل، إلى "همدان غيت" وحرق نص الدستور. هنا، لم يدرك الروس ربما أنهم ضربوا على أكثر الأوتار حساسيةً في السيكولوجيا الإيرانية، إذ أسقطوا التقية في همدان، فغضبت إيران.

العربي الجديد

المصادر: